اوهام الدارس بعد شهادة المدارس

لهنري مايلهاك معرّبة بقلم الاديب ميشال افندي شبلي

قرأتُ للكاتب الافرنسي هنري مايلهاك (H. Meilhac) مقالاً أعجبتُ بمعناه ومبناه صاغهُ الكاتب بقالب رسالة لحفيدٍ قد حاز الشهادة العالمية فجاء حقيقة صائبة لما يصادفه السواد الاعظم من متخرّجي المدارس من انسداد ابواب الرزق امامهم . وذلك لعمري من آفات بلادنا على الاخص ففي كل سنة يتخرج من مكاتب الدرس مئات من المتبين وبيدهم الشهادات فيأخذون في البحث عن طريقة شريفة تمكنهم من اكتساب معاشهم فصاحب النصيب هو الذي يمكنهُ ان يكون كاتباً في محل تجاري او كاتباً في دائرة يدفن فيها ذكاءهُ وعلمهُ براتب هو دون الطفيف قلما يكفيه لسد احتياجاته . ومَن تأبى عليه نفسهُ ذلك لا يجد امامهُ سوى ركوب متن البحار بجانب القروي المهاجر الى ديار الغربة حيث يوقف هناك ما هو عليه من مقدرة ونشاط في خدمة بلاد غريبة

أما إصلاح هذا الخلل فهو من الضروريات القصوى وهو بلا مشاحة في التعليم الكافي والتخصص بفرع او صناعة معلومة يكون من ورائها النفع الشخصي العمومي ثم الثبات في مزاولة العمل . وهاك نصَّ تلك الرسالة :

يا حفيدي العزيز

قد علمتُ بانك قدَّمت الفحص على دروسك ونجحت فاني اهنئك فيها انك تترك منضدة الدرس وتصير رجلاً غير اني انصحك بألّا تخال ذاتك مدعواً وكفؤاً لمزاولة كل الاعمال لانك قد حزت قصب السبق في الترجمة او لانك تفوّقت في الكتابة لانه يجب على من يريد ان يسود في العالم ان يمتاز بغير الاوّلية في دروسه ولا تظن بانه يكفيك لتملك عنان المستقبل ان تكون حائزاً على الشهادة . لا فاني حزتها قبلك وان معي شهادة العلوم والمعارف وشهادة المحاماة ايضاً فاذا نفعني كل ذلك؟ . انه حملني بعد ما حاولت مزاولة مهن عديدة غريبة ان اوقف ذاتي اخيراً في خدمة الاتراك واني الآن اسرد لك باختصار ما آلت اليه حالي قبل ان اصير تركياً واتمنى ان

يكون لك هذا الدرس نافعاً ويجعلك حكيماً مدرباً فيسهل عليك ادراك فهم امور هذه الحياة على العموم وخصوصاً حياة امثالك المنتهين من دروسهم

حزتُ انا على الشهادة الدرسية وكان عمري ثاني عشرة سنة .. وكان اليوم المعدّ لتقديم الفحص النهائي يوماً ممطراً وكانت الثلوج تتراكم في الازقة . فتأففت من ذلك عند خروجي من باب الكلية وقلت ما اكثر الثلج والاوحال فانها تضايقنا . وكان ذلك على مسمع من احد مأموري التنظيف فالتفتَ اليَّ وقال: سنأتي على تنظيف هذا كله قبل المساء واذا احتجنا الى عملة وفعلة فاننا سنجد غدا حتى ثلاثة الآف عامل من متخرجي المدرسة الجدد الذين سيأتوننا طالبين عملا . فعددتُ في نفسي هذه الكلمة وقاحة منه ولكن بالاسف فانه لم يطل بي الامر حتى ظهرت لي حقيقتها المحزنة

وكنت قد انكببتُ منذ خروجي من المدرسة على درس الحقوق مدى سبع سنوات لم احتج فيها الى فتح بشهاداتي . وبعدها اخيراً صرتُ في مصاف المحامين . فأتى اليوم الذي وجب عليَّ به ان اقف مدافعاً لاول مرة وذلك عن شخص اخذ من اخر بعض آنية وانكرها عليه . وكنت وَجِلًا في تلك الساعة بهذا المقدار حتى اني اتشحتُ بثوب قصير لم يبلغ ركبتيّ . فكان ذلك مدعاة للضحك حال دخولي قاعة المحكمة . فنبهني احد اصدقائي بلطف الى وجوب ابداله . فذهبتُ وابدلتهُ بثوب آخر كان هذه المرة طويلًا حتى اني عند الدخول عثرتُ باذياله وانطرحت في القاعة وبوسعك ان تدرك كم احدث ذلك من الضحك حتى ان القضاة لم يلبثوا ان برّأوا ساحة الذي كنت ادافع عنه مثل مكافأة لي على إضحاكهم . فربحتُ القضية بدون سابق امل بذلك . ولكن رغم هذا النجاح ظللتُ احسب ذاتي دون مهنة المحاماة وكتبت بذلك لأهلي . فجاءني جوابهم وفيه هذه العبارة ومؤدّاها «ان السنّة الطبيعة تقضي بان افراخ العصافير عندما تنبت جوانحها يجب ان تقوم بذاتها بجميع احتياجاتها» . فهذا المثال جعلني ان افكر مليًا وكنت اعلم بانه ليس لي ان اطيل اتكالي عليهم فرأيتهم على صواب برغبتهم في ان يروني اقوم وحدي بأودي وكيف لا يمكن ذلك؟ ومن تراه يظن بان رجلًا مثلي بيده الشهادات العلمية وهو مع هذا محام لا يستطيع ان يكتسب بسنة مثل ما يكتسب التاجر؟ فقلت في ذاتي: يجب ان يكون في جناحي قوّة الطيران

وكان آنئذ انَّ الاستاذ الذي درستُ عليه القراءة محتاجٌ الى معلم بعد ما تركه لاحتراف التجارة المعلم الذي كان عنده فطلبتُ ذلك المحل وادركتهُ بفضل ألقابي العلمية وكان كسبي منه ثلاثين فرنكاً شهرياً مع اكلي وشغل اربعة عشرة ساعة في النهار فتدرَّعتُ اولاً بقوَّة الارادة واحتملت ذلك في الشهر الاول ولكني اقرُّ ان صبري نفد في اخره فتركت الاستاذ وتلاميذه غير مأسوف عليهم. وعددتُ ذاتي سعيدًا بالدخول حالاً في حاشية بعض الوجهاء لتعليم احد اولاده مبادئ اللغات القديمة. فكان ذلك احسن من الحال الاول ولكني لسوء الحظ لم اتمكن من الاتفاق مع تلميذي الجديد وما عتموا ان نبذوني من الخدمة

واخبروني اذ ذاك ان في احدى النظارات اشغالاً هامَّة يطلبون لقضائها الاكفاء. فقصدتُها حالاً وقابلتُ احد المعاونين وكان على صدره وسام وعلى انفه نظارة زرقاء. فقلت له: اني اودُّ الدخول في النظارة كمساعد واخذت اسرد لهُ شهاداتي واعدد له معارفي. فقال لي: اكتب استدعاءك على ورقة لنتمكن من رؤية خطك. وادار قفاه. فخرجتُ شاعرًا بالاهانة. ومع ذلك كتبتُ استدعائي بخط جميل يحسدني عليه اشهر الخطَّاطين ولبثتُ انتظر جوابه. وبعد ستة اسابيع تلقَّيت خبر تعييني. وكان ان في مدة هذه الاسابيع لم اتمكن من العمل ولم أرد ان أعلم اهلي بان شهاداتي تتركني اتضور جوعاً فتراكمت علي بعض الديون. اخيرًا دخلت النظارة وقلبي يتطلَّع الى ما ستحتاج اليه الحكومة من رجل بقدرتي فنادني المعاون ذو النظَّارة الزرقاء الى منضدة يعلوها كداسة اوراق وعلى كل منها رقمٌ معلوم فقال لي: عليك ان تنظم هذه الاعداد بترتيب الارقام وخرج. فوقفتُ افتكر بان هذه المهنة هي اولى باحد الاغبياء اكثر ممَّا هي بدارس نابغة مثلي. ومع ذلك لم ابس ببنت شفة بل اخذت بترتيب تلك الاوراق ولم آتِ على اخرها الَّا بعد مضي نحو شهرين ونصف مع العمل اثنتي عشر ساعة في النهار وبعد ما اكملتُها اعلمتُ المعاون بذلك فقال لي: «حسناً وها اني ارسل لك ما تعمله». واذا باثنين من خدَم النظارة أقلَّا باقلَّ من عشر دقائق رزماً جديدة من مثل تلك الاوراق تضاهي بل تنيف عن التي وجدتها يوم دخولي.. فاحتدمتُ غيظاً ولكن كان يجب عليَّ ان اتمالك ذاتي

اما المعاون ذو النظَّارة الزرقاء. فقد كان متحكاً بحركاته ولم يكن يدخل عليَّ

مرةً دون ان يُسمع صوته الأجش مردداً هذه العبارة يريد بها التهكم قائلاً: «أما وجدتم الخطأ؟» . فاردت اخيراً ان أظهر له خطأه لعدم تقديره ما بي من الكفاءة فنظمتُ قطعةً شعرية سخرية به وقرأتها لجاري في العمل وكان هذا ايضاً من ذوي الشهادات العلمية وكانت مهنتهُ في النظارة قائمة بثقب اوراق مذيلة وربطها مع بعضها بخيوط حمراء. وكان ينشطُ احياناً في عمله فيحسدني على سهولة عملي . فوجد شعري مضحكاً واعجبهُ غير انه لم يخرج في المساء حتى اخذ يفتش عن المعاون واخبره بذلك . وفي الغد جاء المعاون باكراً على خلاف عادته واستدعاني اليه ولوائح الغضب بادية بين عينيه وقال لي: بأني سأكون بلا شك شاعراً نحريراً ولكني لا اصلح للخدمة في النظارة وصرفني شاكراً خدماتي . وبينما انا منصرف رأيت رفيقي يترك ثقب اوراقه ويجلس مكاني لترتيب الاعداد

ولم يكن كسبي من النظارة سوى الزهيد ولكن بما ان العمل لم يكن يترك لي وقتاً لأسرف به راتبي تمكنتُ من ايفاء بعض ديوني . ثم عدتُ فوجدتُ ذاتي بدون عمل ولم يكن من يطالبني غير انه لم يكن لي من دخلٍ ايضاً ومع ذلك لم آسف على ترك مكتب النظارة فقد قال لي المعاون باني اكون شاعراً . فقلت في ذاتي : ان ذلك في الحقيقة هو ميلي فسأقف ذاتي في خدمة الأدب ولم أعد لأفكر بان اقيد نفسي في كل مهنة تعرض لي على السواء . وكتبتُ روايةً شعريةً ذات فصل واحد جعلت بطلها المعاون ذا النظارة الزرقاء وحملتها الى مدير احدى جوقات التمثيل فقال لي : اني سأقرأها فاذا وافقتني ووجدتُ لك مساعدا على تمثيلها فلا بأس من ذلك ولكن يجب ان انبهك ان لديّ الآن ١١٧ رواية من نوعها يجب ان يصير تمثيلها قبل روايتك . فتركتهُ وذهبت مفكراً بان اكرّس ذاتي لفرع من الادب يكون لي منه نفع اوفر . فاهتديتُ الى كتبيّ كان يطبع معجماً اشبه بدائرة المعارف . فاعطاني كلمتين لاكتب عنهما ما يجب . وكانت احداهما كلمة «سليمان» تبتدئ بحرف السين والاخرى تبتدئ بحرف الكاف . فكتبتُ عن الاولى مقالاً ضافياً طويلاً جمعتهُ من حيث تيسّر ذلك وكتبتُ عن الكلمة الثانية بضعة اسطر حسبما اقتضى معناها فنقدني عنها ربع فرنك . اما المقال الاول الضافي الكبير عن سليمان فوعدني بدفع الاجرة عنه عندما يصل الى حرف السين (لأنَّ حرف الكاف قبل حرف السين عندهم

في الهجاء) فسألته اين هو في حروف الهجاء فقال انه لم يزل في حرف الباء وبعزمه ان يكتب كل سنة عن حرفين من الهجاء . فقط . فطلبت ان يعطيني عملاً يُنقدني اجرته في الحال فاعطاني بعض كلمات لاكتب عنها وهي تبدأ بآخر حروف الهجاء . فشكرته وانصرفتُ وفكري مشتغل بما عساه ان يفيدني قوتي اليومي فرأيت ذاتي مضطراً كما تقول العامة لتعليق لساني بالسقف . واني اظن انه لو جاءني في تلك الساعة مأمور لتنظيف الشوارع وعرض علي عملا لما ترددت رغم شهاداتي العلمية عن ان آخذ المكنسة والمِسْمح وانضمَّ الى مرزوسيه . وجال بخاطري في تلك الساعة ان اذهب وآخذ محلًا بقرب الجسر لتنظيف الأحذية مع كتابة تشير الى ان هناك احد متخرجي المدرسة في العلوم والمحاماة ينتظر كسب معاشه من جزّ صوف الكلاب . . .

وكان رأس السنة قد اقترب فاهتدى الي بائع حلويات وطلب مني ان انظم له امثالاً وحكماً يضعها في حلوياته فلم اعجز عن ذلك بفضل النقل وتبديل ما انقله ونظمتُ بعض قطع للاعراس والولائم والولادات حسب الظروف

وكان هذا آخر عهدي بالشعر لانه لم يُكسبني خبزي واخذت اتأسف على ايام كنت فيها ارتب الاوراق في مكتب النظارة . وهذا الاسف ذكّرني بأني قد عملت الدخول في ذلك المكتب المتحوس استدعاء استلفتّ النظر لجمال كتابته فافتكرتُ في انه يمكنني ان اكون ناسخاً فطلبت ذلك وحصلت على مركز في احد مكاتب النسخ في غرفة ضيقة تفوح منها الروائح الكريهة فيها خمسة من النسّاخين الشيوخ ذوي اطواق وسخة وكان اثنان منهم ذوو شهادات علمية مثلي ومثلك . فكانت لي معهم على الاخص علاقات وديّة وكان احدهم بهيئة مهملة جداً لا يجيب مخاطبه الّا بهاتين الكلمتين مبتسماً : « ان الشبيبة هذّارة » . وكان الآخر يقول دائماً انه اكتشف على طريقة يمكنه بها ان يحصل على ثروة طائلة في همبورج غير ان نفقة الطريق كانت تنقصهُ دائماً للسفر الى هنالك . فقضيت سنةً تقريباً في تلك الغرفة انسخ لبعضهم مذكرات سفر او استدعاآت او حسابات واحياناً بعض روايات كانت تضجرنا اكثر من نسخ الحسابات

وبلغني في ذلك الحين موت احد اقاربي واني ارث منه زهاء اثني عشر الف فرنك — فتركتُ من ساعتي ذلك العمل . ولم اعلم كيف عرف حالاً ذلك الشيخ

صاحب الطريقة السهلى لادراك الثروة بذلك الخبر وأسرع اليّ قائلًا: لا يمكنك ان تعيش من دخل ٥٠٠ فرنك سنويًا بل تعال معي لنذهب الى همبورج هنالك باتّباع نصائحي تصير غنيًا وانا اكفل لك ذلك . فشككتُ اولا بالامر ولكنه اخـذ يسحرني بربح الملايين حتى صرتُ اخيرًا اصغي اليه بطيبة خاطر فقال لي: «انك متوقد الذكاء ذو فطنة فيجب عليك ان تدرك كلامي» ثم اخذ يشرح لي طريقته وكنت ذا فطنة كما قال ففهمتُ ما اراده وذهبنا معًا الى همبورج واخذتُ ألعب متّبعًا نصائحه فخسرت خلال اسبوع واحد زهاء سبعة آلاف فرنك ونيف . فقال لي: انك خسرت بخطائك ومخالفتك مشورتي وما إخفاقك هذا الّا ليزيدني تمسّكًا بطريقتي

فهززت رأسي وتركت هذا النصوح الغافل . غير اني عدت فاطلقت من حدتي لان ما حصل قد فات وتعلّمت على الاقل بان لا انشغل باللعب في المستقبل . وبعد ما طلبت من ذلك الرفيق على غير جدوى بان يعود معي لانه كان صافي القلب رغم اوهامه رجعتُ الى باريس وحدي وهناك اخذت ابحث عما بوسعه ان يجعلني غنيًا . وبما انه كان لم يزل في جيبي خمسة اوراق قيمة الواحدة الف فرنك وَعَدتُ ذاتي بان اكون متأنيًا في بحثي اكثر من الماضي وقلت: لن اقبل ان اكون مدرّسًا باجرة ثلاثين فرنكًا ولن ارضى بان اكون ناسخًا ولن . ولن . . فيومًا ما سمعتُ احد الضباط يوصي مصورًا بان يعمل له رسمهُ قائلًا : « اني أُعدّه لفتاة من بلادنا فاحذر من ان تكون هذه الصورة كثيرة الشبه بي لاني ارغب بان لا يعرفها اهلي » . فهذه القصّة جعلت فيّ الميل للتصوير كيف لا ونحن في عصر التصوير الشمسي . فصرت مصوّرًا واشتريت الادوات اللازمة واتّخذت لي مأوى في احدى الشرفات فلم تسوء الامور في مبتدأها وكان لي الشرف بان اصوّر مجّانًا كلّ اصحابي تقريبًا ولكن لسوء الحظ ان علومي التي لم تُثنِني فتيلًا حتى ذلك الحين اخذت تضرّ بي مذ ذاك بدلًا من ان تنفعني . ذلك اني اردت ان انتفع من المعارف التي اكتسبتها في الكيميا فازيد بذلك تحسين فنّ التصوير وبما انّي لم اكن غنيًا اكتشفتُ طريقةً محدثة وناديتُ بها ولكن كان احد المصوّرين قد سبقني اليها ونال امتيازها قبلي فاقام عليّ الدعوى باختلاس حقه وربح دعواه فمقتُّ مذ ذاك التصوير وبعتُ ادواتي جميعها

وقد كنت في كل تلك المدة لم ازل على طريقة الرغد في معيشتي فكان يشقّ

عليَّ تركَ بعض عوائد الرفاه فلم اكن لأرضي بهما كلّفني الامر بان البس ثوباً خلقاً او بان أُعدَم النار في غرفتي ايام القرّ . امّا جيبي فكان لم يزل فيه بعد خسران الدعوى ونفقات العدالة زهاء ثلثة الاف فرنك وهو مبلغ زهيد غير كافٍ لتحقيق الاماني التي حلمتُ بها للوصول الى هناء العيش وخفضه فقال لي احد اصحابي يوماً : بيدك ثلاثة آلاف فرنكٍ وانت متقاعس عن العمل ؟ ألا تعلم بانه يمكنك بهذا ان تحصل بسهولة على مدخول ستة آلاف فرنك ! فقلت له : لربما يكون ذلك بتربية الارانب . فقال : لا بل باللعب بالبورصة — فقلت اذا كان الربح في البورصة سهلاً بهذا القدار فلماذا لا يُقبل جميع الناس على المضاربة فيها ؟ — فقال : لانّ قوماً من البلهاء يخافون . ثم قال : نعم يا صديقي ان بعضهم يؤكد ان في البورصة الخراب وما هذا وحقّك سوى اشاعاتٍ روّجها نحن المضاربين لتنفير المزاحمين ولكيلا تفسد الغنيمة بالكثرة . واخذ يشرح لي بايّة عمليّة يمكنني ان العب واربح دائماً واعاد على مسامعي مراراً بانهُ ليس عليَّ بان أُجازف بشيءٍ من مالي حتى اقتنعتُ اخيراً بصحّة ما قال وصرتُ من دُعاة البورصة الخطر مختالاً في قاعة المضاربة بين قوم لهم من الاستقامة ما يُعرف عنهم !

فاسعدني الحظ مدة ثلاثة اشهر كنت اربح فيها كل يوم من خمسة عشر الى عشرين فرنكاً حتى سنحت الفرصة يوماً لتحقيق ارباح اوفر فدعاني صديقي ملحاً الى اغتنامها لان التصاعد في الاسعار كان مؤكداً . فلعبتُ آملاً بذلك وما عتم ان صار هبوط هائل فخسرتُ مائة ليرة فاثّرت فيَّ هذه الضربة ولم يبق معي سوى الف فرنك فاخذت أُعمل الفكرة عن جديد في عملٍ ما — وكان ان استلفت نظري اعلانة على ورقٍ اصفر كُتبت عليه هذه الكلمات : « يُطلب بعض مستخدمين يشترط فيهم حسن الهيئة والهندام » فقدمت ذاتي للمحل المعيّن وكانت هيئتي مرضيّة فأفهموني ما يجب عمله بان اخدم احدى المكاتب بترويج بيع الكتب . فهالني الامر اوّلاً غير ان بعضهم اكّد لي بان هذه المهنة تسرّ صاحبها وتكسبه المال الجزيل . فتأبطتُ يوماً إضبارة من الكتب وذهبت الى واحدٍ اعرضها للبيع فأوصد الباب بوجهي - ثمّ تهدّدني الثاني بالشكوى والسجن بسبب ازعاجه . اما الثالث فبعد ما تمكنتُ من الدخول اليه صرفني خالاً حتى انه سألني عند انصرافي اذا لم اكن سرقتُ من

المستقبل اذا لم تكن مالكاً ناصيته هو الشقاء بذاته . انك لو كنت من المثال لما خشيتُ عليك من البؤس لان المجتمع الذي تعيش به يرأف بشديد السواعد اكثر من رجيح العقل وصاحب الصحافة والحجى . انك عالم وذكي وهذا ما يحملني ان اخاف عليك الحياة لأن ما انت متصف به ليس من الضروريات الاولى للمعيشة وقد كثر اليوم من هم كذلك . فأمعن النظر بهذا وأعمل الروية . وفي الختام استودعك الله

أثران للشاعر الغزيري الخوري حنّا رَعد في مدح فرنسة

—— تذكار خمسيني —— لما كانت السنة ١٨٧١ بعد حرب فرنسة والمانية ظنّ البعض ان اللبنانيين اذ رأوا الدولة المدافعة عنهم قد غلبها الالمان تراخوا بحبها وعدلوا عنها . فزار حينئذٍ لبنان القنصل الفرنساوي روستان فكان له استقبال فخيم في كلّ الجهات واراد اهل لبنان بمظاهراتهم الجليلة ان يبرهنوا عن ثبات حبهم نحو فرنسة في السراء والضراء . ومن جملة ما انشده وقتئذٍ شعراء لبنان القصيدة الآتية للشاعر المجيد الخوري حنا رعد الغزيري ل . ش

حُبُّ لبنان لِدَولة فرنسا الفخيمة

حُبٌّ قديمٌ ثابتُ الاركانِ … لِفَرَنسَ قامَ على ذُرى لُبنانِ
وغدا أصيلًا في جوارحنا … تزداد جِدَّتهُ بكلِّ أوانِ
ولقد تمازجَ بالدِما في جسمنا … كتمازجِ الأرواحِ بالأبدانِ
حبٌّ شرَتهُ فرنسُ من لُبنانِنا … بدمِ الفوارسِ ارفعِ الأثمانِ
أفما تصفحتَ التواريخَ التي … تُنبيكَ عن حربٍ على الصُلبانِ
اذ حاولَ الأعداءُ رفعَ هِلالهم … فوقَ الصليبِ علامةِ الايمانِ
فهناكَ تنظرُ أنَّ اولَ زاحفٍ … لخلاصِ سوريا بنو شَرلمانِ
اضحت فرنسا امَّ كلِّ حميةٍ … مذكورةٍ في غُرَّة الأزمانِ
فتألبت فُرسانُها وتقلَّدت … بمُهنَّدٍ ومثقَّفٍ وسِنانِ
منهم فريقٌ قد جرَت فُلكٌ بهم … وطَوى الفدافدَ والصحارى الثاني
بلغَ الجميعُ الى اراضينا التي … كانت باهلِ الجورِ في غليانِ
لمّا رأى آلُ الفرنسيس الأُولى … نالوا السباقَ بحِنكةٍ ورِهانِ